بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس:38 **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:01\02\2022 م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

ما زال البحث لمناسبة الكلام عن وصية لقمان الحكيم عليه السلام لابنه في الموعظة التي أردنا أن نختم بها هذه الآيات التي ترتبط بوصيته، ووصل الكلام إلى قوله: وَأَخْلِصِ الْعَمَلَ فَإِنَّ النَّاقِدَ بَصِيرٌ.

هذه الخصلة الرابعة في غاية الأهمية، تتناول موضوعاً من الموضوعات القلبية الأخلاقية الذي ركز عليه علماء الأخلاق، وركزت عليه الآيات والروايات.

الإخلاص: عبارة عن تصفية السر عن ملاحظة ما سوى الله تبارك وتعالى. هذا يقال له: الإخلاص، تصفية الباطن عن إرادة ما سوى الله في أعمال العباد يسمى إخلاصاً. وهذه الكلمة مأخوذة من جذرها اللغوي والذي استعمل في القرآن الكريم، جاء في سورة النحل: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خالِصاً سائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾[1] فاللبن والحليب الخالص المتمحض في اللبنية، والذي لم يحمل معه أي شيء من ذرات الدم، وأي شيء مما يكون في كرش الحيوان، هذا نسميه لبناً خالصاً، أي: لا يشوبه أي شيء إلا اللبنية، هذا المعنى اللغوي للكلمة، الشيء الخالص أي: المتمحض في حقيقة الشيئية، ولم يختلط مع شيء آخر، فكما أن اللبن الخالص هو تلك المادة غير المشوبة بالدم والفرث، العمل الخالص أيضاً هو العمل غير المشوب بالرياء والهوى، العمل الخالص من الرياء والهوى يسمى إخلاصاً، فعندما أقوم بعمل ولا أريد أن أشرك بهذا العمل سوى الله سبحانه وتعالى، ولم ينشأ من رغبات وأهوائي فيقال لهذا العمل بأنه خالص.

هذا المقطع من الرواية: "وَأَخْلِصِ الْعَمَلَ" يشير إلى هذه الحقيقة، لم تقل الرواية وكثّر العمل، لم تقل الرواية وأحسن العمل، وإنما العمل بسبب نية الإخلاص وعدمها قد يكون العمل خزفة لا يسوى شيئاً،

[1] النحل 66

وقد يصل إلى مرحلة يكون جوهرة لا يقدر ثمنها إلا الله تبارك وتعالى، وهو عمل واحد. فالمدار ليس على كثرة العمل ولا على حسنه، وإنما المدار على أن يكون خالصاً لوجهه تبارك وتعالى.

يحكى أن رجلاً[2] كان يصلي في الصف الأول ثلاثين عاماً، في يوم من الأيام جاء متأخراً، فصلى في الصفوف المتأخرة، فشعر الانقباض في نفسه، التفت إلى نفسه، إذن أنا صلاتي في الصف الأول التي كنت أحسّنها لا لأجل أن الثواب أكثر في الصف الأول، بل لأجل أن يكون لي موقعية في أعين الناس، فعكف على قضاء صلاة ثلاثين سنة؛ لأننا نعرف بأن الرياء يفسد العمل.

وهذا الأمر يكثر بين أهل العلم، فترى أن الواعظ منا والخطيب والمدرس والكاتب يسر إذا أدت خطبته وموعظته ودرسه وكتابته إلى نفع الناس، لكننا في الوقت نفسه إذا برز شخص في قريته أو في حوزته أو في مدرسته، ووعظ الناس وخطب الناس ودرس الناس والتفوا حوله يساء، مما يكشف على أن الغرض عند الكثير منا لا يكون خالصاً لوجه الله سبحانه وتعالى.

وقد يلتف إبليس علينا، فيبين لنا أن مساءتنا لا لأجل حسد ذلك الآخر، بل لأجل أننا حرمنا من الثواب، ونغفل عن أن سرورنا بنشر الدين والهداية والمذهب ولو كانت على يد الغير الذي كفانا الله مؤنة ذلك ربما تكون أكثر ثواباً من حزننا على عدم تحصيل الثواب.

فإذن لا بد أن ننظر إلى صفحة أعمالنا قبل أن توضع هذه الأعمال وهذه الصحيفة بين يدي ناقد بصير، "وَأَخْلِصِ الْعَمَلَ فَإِنَّ النَّاقِدَ بَصِيرٌ" يمكن في هذه الدنيا أن أخفي نيتي الحقيقية، لكن عند الله سبحانه وتعالى الذي يخرج الخبأ، الذي يعلم ما توسوس به الأنفس، لا يمكن إخفاء هذه النوايا.

ولذا من الأمور العجيبة التي نراها عند مطالعة الآيات والروايات، ومن الآيات التي تنفع لهذا المقام: ﴿وَبَدا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُون (47) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا﴾[3] وفي يوم من الأيام النبي الأعظم صلى الله عليه وآله يقول لأصحابه: أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ. فَقِيلَ: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ لَهُ. فَقَالَ: الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا

[2] نقلت القصة عن الشيخ البهائي في كشكوله عن بعض العباد، قوله: أعدت صلاة ثلاثين سنة كنت أصليها في الصف الأول لأني تخلفت يوماً لعذر فما وجدت موضعاً في الصف الأول فوقفت في الصف الثاني فوجدت نفسي تستشعر خجلاً من نظر الناس إليّ وقد سبقت بالصف الأول فعلمت أن جميع صلاتي كانت مشوبة بالرياء ممزوجة بلذة نظر الناس إليّ ورؤيتهم إياي من السابقين إلى الخيرات. وكذلك نقلها غيره.

[3] الزمر 47 - 48

وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ.[4]

معنى المفلس واضح في مجتمعاتنا، وهو الإنسان الذي تكثر ديونه وتزيد على ما يملك، فإذا أراد أن يسدد تلك الديون تنتهي أمواله، ويبقى عليه ديون أخرى، فيقال له: في عرفنا أعلن إفلاسه. فقال رسول الله ﷺ المفلس في يوم القيامة ذلك الإنسان الذي يأتي بأعمال الخير، عنده حسنات، لكن يأتى به إلى النار؛ فعند كل عمل "فَإِنَّ النَّاقِدَ بَصِيرٌ" هذا الكتاب الفلاني الذي ألفته لم يكن لوجه الله سبحانه وتعالى، فلا قيمة له، إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّات[5]، هذا المشروع الفلاني، والمسجد الفلاني الذي بنيته كان لأجل أن يقول الناس بأنك من الخيرين، وقد قالوا عنك ذلك في الحياة، فإذن هذا في يوم القيامة لا قيمة له، أو على تقدير أن بعض الأعمال كانت لوجه الله، لكنك اغتبت فلاناً فيؤخذ من ثوابك إليه، وهكذا ما يبقى عندك حسنات، وتبقى عليك تبعات، فتعلن في يوم القيامة إفلاسك، هذا المفلس في يوم القيامة.

في بعض الروايات في كتاب الكافي الشريف قال النبي ﷺ: إِنَّ الْمَلَكَ لَيَصْعَدُ بِعَمَلِ الْعَبْدِ مُبْتَهِجاً بِهِ فَإِذَا صَعِدَ بِحَسَنَاتِهِ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ اجْعَلُوهَا فِي سِجِّينٍ إِنَّهُ لَيْسَ إِيَّايَ أَرَادَ بِهَا.[6] لأن الملائكة يحبون أن يصدر الخير، كما يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في السحر: "إِلَهِي إِنْ أَدْخَلْتَنِي النَّارَ فَفِي ذَلِكَ سُرُورُ عَدُوِّكَ وَإِنْ أَدْخَلْتَنِي الْجَنَّةَ فَفِي ذَلِكَ سُرُورُ نَبِيِّكَ" الملائكة أيضاً تسر بالعمل الحسن.

وفي خبر آخر في الكافي عِدَّةٌ مِنْ أَصْحَابِنَا عَنْ سَهْلِ بْنِ زِيَادٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَسْبَاطٍ عَنْ يَحْيَى بْنِ بَشِيرٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع قَالَ: مَنْ أَرَادَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِالْقَلِيلِ مِنْ عَمَلِهِ أَظْهَرَ اللَّهُ لَهُ أَكْثَرَ مِمَّا أَرَادَ وَمَنْ أَرَادَ النَّاسَ بِالْكَثِيرِ مِنْ عَمَلِهِ فِي تَعَبٍ مِنْ بَدَنِهِ وَسَهَرٍ مِنْ لَيْلِهِ أَبَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا أَنْ يُقَلِّلَهُ فِي عَيْنِ مَنْ سَمِعَهُ.[7]

---

[4] بحار الأنوار (ط - بيروت)، ج69، ص: 5. وشرح الكافي-الأصول و الروضة (للمولى صالح المازندراني)، ج1، ص: 313.
[5] عن الرسول صلى الله عليه وآله. مصباح الشريعة، ص: 53.
[6] الكافي (ط - الإسلامية)، ج2، ص: 295.
[7] الكافي (ط - الإسلامية)، ج2، ص: 296

إذن المدار ليس على الكثرة، بل المدار على إرادة الله، المدار على ما نفهمه من قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً﴾[8] قد يسمع واحد ﴿نُطْعِمُكُمْ﴾ يظن ذبحوا الذبائح، ومدوا الأسمطة وما شابه ذلك، وإنما أطعموهم أقراص من شعير، في حساب عالم الدنيا لا قيمة له، لكن لكونها لوجه الله تبارك وتعالى، فكانت النتيجة ﴿فَوَقاهُم﴾ و﴿لَقَّاهُمْ﴾ و﴿جَزاهُمْ﴾ وهي: ﴿فَوَقاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً (11) وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾[9]

فإن المدار ليس على القلة والكثرة، هذه المفارقة في زمن محدود، في أعمال محدودة، نريد أن نحصل على جنة عرضها السماوات والأرض، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر، أعمال محدودة في زمان وفي عمر محدود، نريد أن نحصل على ما لا حد له، حل هذه المفارقة بإعطاء كيفية نوعية لهذا العمل المحدود، لهذا العمل القليل، هذه الكيفية المحدودة ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ أن يقصد وجه الله تبارك وتعالى.

ونختم بهذه الرواية المشهورة عن أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ لِلْمُرَائِي يَنْشَطُ إِذَا رَأَى النَّاسَ وَيَكْسَلُ إِذَا كَانَ وَحْدَهُ وَيُحِبُّ أَنْ يُحْمَدَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ.

"وَأَخْلِصِ الْعَمَلَ فَإِنَّ النَّاقِدَ بَصِيرٌ" فمجال الإخلاص هذه الفرصة الدنيوية، ومجال نقضي أمام رؤوس الأشهاد في عالم الآخرة جعلنا الله وإياكم من المخلصين.

---

[8] الإنسان 9

[9] الإنسان 11 -12